نقد الحضارة الغربيّة في فكر مالِك بن نبيّ

الكاتب: عماد الدّين إبراهيم عبد الرّزّاق.

النّاشر: المركز الإسلاميّ للدّراسات الاستراتيجيّة (العَتَبَة العبّاسيَّة المُقدَّسة).

الصّفحات: 94 صفحة.

سنة النّشر: 2019م.

مراجعة: رشا حسين الحاج*

«إنَّ الاستعمار لا يتصرَّف في طاقاتنا الاجتماعيّة إلَّا لأنَّه درس أوضاعنا النّفسيّة دراسة عميقة، وأدرك منها موطن الضّعف؛ فسخَّرنا لمَا يُريد كصواريخ موجَّهة يُصيب بها مَن يشاء. فنحن لا نتصوَّر إلى أيِّ حدٍّ يحتال لكي يجعل منَّا أبواقًا يتحدَّث فيها، وأقلامًا يكتب بها. إنَّه يُسخِّرنا وأقلامنا لأغراضه، يُسخِّرنا له بعلمه وجهلنا».

هكذا، تطرَّق «مالك بن نبيّ» إلى مشكلة الاستعمار ومشكلة قابليّة الاستعمار.

---

* ماستر تاريخ - الجامعة اللبنانيّة.

حياته ومؤلّفاته

وُلد «مالك بن نبيّ» في مدينة قسنطينة الجزائريّة، عام 1905م، «في فترة يتّصل فيها وعيه بالماضي المُمَثّل في أواخر تطوّره، وبالمستقبل في أوائل صائغيه»، كما يُعبّر هو نفسه عن ذلك. ويُعدّ من أعلام الفكر الإسلاميّ العربيّ في القرن العشرين الذين نبَّهوا إلى العناية بمشكلات الحضارة. فهو يرى أنَّ مشكلة كلّ شعب في جوهرها هي مشكلة حضاريّة، وتاليًا لا بُدَّ مِن فَهم العوامل التي تبني الحضارات أو تهدمها.

عاش «مالك بن نبيّ» في فرنسا لوقتٍ طويل، وتزوَّج امرأة فرنسيّة، وزارَ معظم الدّول الأوروبيّة، ما ساهم في تعميق معرفته بالمجتمع الغربيّ. مِن أبرز مؤلّفاته: «الظّاهرة القرآنيّة» (1946م)، «شروط النّهضة» (1948م)، «وجهة العالم الإسلاميّ» (1954م)، «مشكلة الثّقافة» (1959م)، «حديث في البناء الجديد» (1960م)، «الصّراع الفكريّ في البلاد المُستعمَرة» (1960م)، «بين الرّشاد والتِّيه» (1978م).

وحدة الثّقافة والحضارة

أشار «مالك بن نبيّ» إلى وجود ارتباط وثيق بين الثّقافة والحضارة، وعرّف الثّقافة على أنَّها: «مجموعة مِنَ الصّفات الخُلقيّة والقِيَم الاجتماعيّة التي يلقاها الفرد منذ ولادته، كرأسمال أوّليّ في الوسط الذي وُلد فيه». فالثّقافة هي المحيط الذي يُشكّل فيه الفرد طباعه وشخصيّته، وهي المحيط الذي يعكس حضارة معيَّنة، والذي يتحرَّك في نطاقه الإنسان المتحضّر.

وقد رأى ضرورة تصنيف الثّقافة عاملًا تاريخيًّا لكي تُفهَم، ونظامًا تربويًّا تطبيقيًّا لنشرها بين طبقات المُجتمع. لذلك، فالثّقافة هي واقعٌ تاريخيٌّ، وما مِن شعب فَقَدَ ثقافته إلّا وقد فَقَدَ حتمًا تاريخه. كذلك، الثّقافة هي واقعٌ اجتماعيٌّ تربويٌّ، يتألّف مِن عنصر الأخلاق لتكوين الصّلات الاجتماعيّة، وعنصر الجمال لتكوين الذّوق العامّ، ومنطقٍ عمليّ لتحديد أشكال النّشاط العامّ، والصّناعة ـ أي الفنون والمِهَن والقدرات وتطبيقات العلوم ـ الموائمة لكلّ نوع من أنواع المجتمع.

وتُهيِّئ الثّقافة لقيام الحضارة من خلال علاقتها الوظيفيّة بها، فهي بمثابة المقدّمة الطّبيعيّة والمنطقيّة لقيامها، وتتحدَّد مِن زاويتين: الأولى تتمثَّل في تقويض

البنـاء السّـابق؛ أي القضـاء على التّخلُّـف والرّكـود، والثّانيـة تتمثَّـل فـي إعـادة البنـاء بوسـاطة منهـج تربـويّ. وعليـه، فالثّقافـة هي جوهـر الحضـارة التي تقـع بين حدَّيـن اثنَين: الميـلاد والأُفـول؛ إذ بعـد ميـلاد الحضـارة بظهـورِ ديـنٍ معيَّـن يبدأ طَـوْر النّهضـة الصّاعدة نحـو أعلى درجـات القِيَـم النّفسـيّة والاجتماعيّـة ـ مرحلـة «الرّوح» ـ، ومـن ثَـمَّ يتحقّـق بالضّـرورة اكتمـال معيَّـن، فيبـدأ طَـوْر وسـيط يُسـمَّى: الأوج ـ مرحلـة «العقـل» ـ وهـو طَـوْر انتشـار الحضـارة وتوسُّـعها. وعندمـا تبـدأ القِيَـم النّفسـيّة والاجتماعيّة دخـول مرحلة «الغريـزة»، يكـون بـدء طَـوْر الأفـول النّـازل.

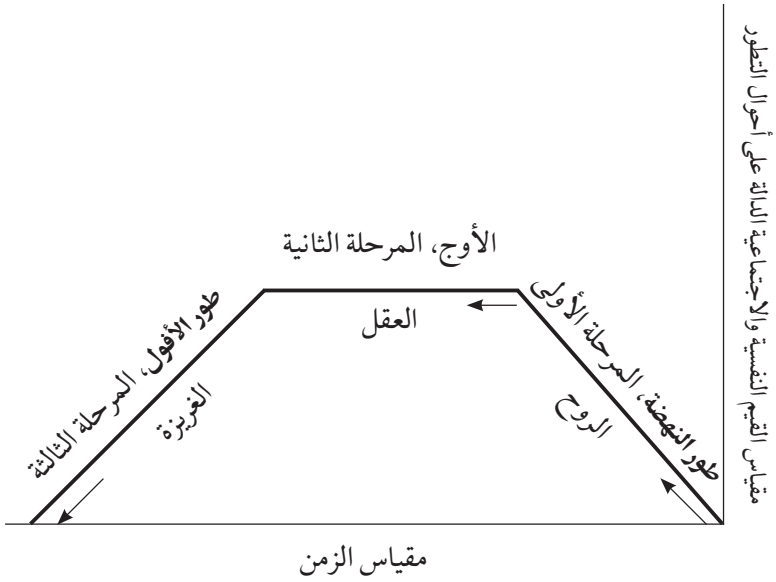

رسم بياني يوضح قانون ظاهرة الحضارة

رأى «مالـك بـن نبـيّ» أنّ الحضـارة هـي إنتـاج فكـرة حيَّـة تطبـع على المجتمـع في مرحلـة قبـل التّحضّـر، وهـي الدّفعـة التي تجعلـه يدخـل التّاريـخ، فيبنـي نظامـه الفكـريّ طبقًـا للنّمـوذج الـذي اختـاره، فتتأصَّـل جـذوره، ويمتـاز عـن الثّقافـات والحضـارات الأخـرى. ويعـدّ الحضـارة ذاك المركـب الاجتماعـيّ الـذي يشـمل ثلاثـة عناصـر: «الإنسـان» و«التـراب» و«الوقـت». ويعـدّ «الإنسـان» عنصرهـا الأساسـيّ، لذلـك لا بُـدَّ مِـن صُنـع رجـال يمشـون فـي التّاريـخ، يُؤثّـرون فـي تركيبـه بفكرهـم وعملهـم ومواهبهـم ومالهـم، مسـتخدمين التّـراب والوقـت في بنـاء الأهـداف الكبـرى. أمَّا عنصـر «التّراب»،

فقيمتـه الاجتماعيّـة مسـتمَدَّة مِـن قيمـة مالِكِيـه، ولذلـك، فقيمـة الأُمَّـة وحضارتهـا المتقدّمة تنعكس على قيمة التّراب. كما تخضع الحياة للتّوقيت، فيتَّصل «الزّمن» اتّصالًا وثيقًا بالتّاريخ. وبتحديد فكرة الزّمن، يتحدَّد معنى التّأثير والإنتاج؛ إذ إنَّه مفهوم داخل في تكوين الفكرة والنّشاط، وفي تكوين المعاني والأشياء.

أكّد «مالك بن نبيّ» أهمّيّة التّوازن الحضاريّ؛ أي التّوازن بين العناصر المادّيّة والعناصر الرّوحيّة، وأشار إلى أنَّ ذاك التّوازن مِن سِمَات الحضارة الإسلاميّة؛ لأنَّ ثقافتها تمتاز عن غيرها مِنَ الثّقافات بالجمع بين البُعديْن المادّيّ والرّوحيّ. كما رأى أنَّ الحضارة هي ثمرة موقف الإنسان مِنَ الوحي، وذلك وفاق ثلاث مراحل: ففي مرحلة ظهور الحقّ وتطبيقه والانسجام مع السُّنَن الإلهيّة تكون الحضارة الرّبّانيّة، وفي مرحلة التباس الحقّ والباطل والإخلال بتطبيق الحقّ يكون المجتمع مفتونًا وتتسافل الحضارة، أمّا في مرحلة إقصاء الحقّ واتّباع الباطل والابتعاد عن الوحي فتتجلّى الحضارة الشّيطانيّة.

تكشف «الحضارة الإنسانيّة» ـ هذه الظّاهرة الجوهريّة في التّاريخ ـ في سيرها عن خطَّة للمجموع، فيتَّجه بوساطتها التّاريخ نحو نقطة معيَّنة، تتجلّى فيها الإرادة الإلهيّة. فالدِّين السّماويّ، هو قانون للحياة، والعامل الأساسيّ في تكوين الحضارة، ووصولها إلى المستوى العالميّ هو خاتمة الدّورات، وليس بعد هذا الوصول سوى الكسوف الكلّيّ للعالَم؛ فالتّاريخ الكونيّ ذو غاية، أمّا التّاريخ الاجتماعيّ فمرتبط بسلسلة مِن الأسباب داخل رقعة الحضارة.

وعليه، يوجد تكامل بين سَيْر الحضارة الإنسانيّة والدّورات الاجتماعيّة أو «الحضارة في النّطاق الاجتماعيّ». كلّما تجاوزت الحضارة الإنسانيّة الحضارة الاجتماعيّة في نطاق مجتمع ما، فإنَّ الدّورة في نطاق هذا المجتمع تتوقَّف، وتبدأ دورة أخرى، بتركيب جديد للإنسان والتّراب والوقت. والمجتمع لا يعاني إلَّا مِن مشكلة واحدة، هي مشكلة حضارته في طَوْرٍ مِن أطوارها. فعندما لا يتحقَّق شرط الانسجام مع ضرورات الحياة تحلّ بالمجتمع، في طَوْرٍ مِن أطوار حياته، المحن كلّها، تحت عناوين الجهل والفقر والاستعمار.

وبما أنَّ الحضارة هي الإطار العامّ الذي ينضوي تحته باقي مجالات الحياة، فقد درس «مالك بن نبيّ» الحضارة بعمق، وسعى لفهم عوامل نشأتها وسقوطها، ومعرفة عناصرها ومميِّزاتها والمنطق التّاريخيّ الذي تتَّبعه.

مفهوم الاستعمار

رأى «مالك بن نبيّ» أنَّ الاستعمار نكسة في التّاريخ الإنسانيّ، وأصوله تعود إلى الحضارة الرّومانيّة التي وضعت طابعها الاستعماريّ في سجلِّ التّاريخ. وحدّد «المعامل الاستعماريّ» في ما يفرضه الاستعمار من عامل سلبيّ يؤثِّر في جميع أطوار حياة الشّعوب الضّعيفة؛ لأنَّه يخدعهم، ويخلق في نفوسهم رهبةً ووهمًا، ويشلّهم عن مواجهته بقوّة. وأمَّا «معامل القابليّة للاستعمار»، فهو العامل الدّاخليّ المستجيب للعامِل الخارجيّ المتمثِّل بالمعامل الاستعماريّ، وهو ينبعث مِن باطن الفرد الذي يقبل أن يسير في الحدود الضّيِّقة التي رسمها وحدَّدها الاستعمار له، كما أنَّه يتمثَّل في الأوضاع الفكريّة والنّفسيّة والاجتماعيّة السّلبيّة التي تضع المجتمع في حالِ وهنٍ حضاريّ، وتجعله ضعيفًا إزاء التّحدِّيات.

يُعدّ الضّعف الفكريّ الذي تُعاني منه الأُمَّة أهمّ عامل مساعد للاستعمار، ولكي يُتخلَّص مِنَ الاستعمار لا بُدَّ مِن التّخلُّص ممَّا يستغلّه في نفوس الأفراد من استعداد لخدمته، شعروا بذلك أم لم يشعروا، كما قال أحد المُصلِحين: «أَخرجوا المستعمِر من أنفسكم، يخرج من أرضكم». وإنْ كان الاستعمار قد رحل بعصاه، فقد بقيَ في الصّميم، نتيجة سيطرته على الحياة السّياسيّة، ومن خلال أفكاره التي تغلغلت في المجتمع. فلدى الاستعمار سلطة خفيَّة توجّه الطّاقات الاجتماعيّة، وإنْ غادر في الظّاهر مساحة الأوطان، حتَّى غدا ذاك الاستقلال المزعوم خاويًا عمليًّا مِنَ المضمون.

مِنَ الضّروريّ دراسة الاستعمار بشكل علميّ، كما دَرَسَ هو الشّعوب المُستعمَرة في الدّراسات الاستشراقيّة لإحكام قبضته عليها والتّصرّف بطاقتها. وقد كان، ولا يزال، للاستشراق دورٌ أساسيٌّ في الصّراع الفكريّ والحضاريّ بين الغرب والشّرق، على الرّغم مِن أنَّ بداية دراسة الغرب للفكر الإسلاميّ كانت بهدف إثراء ثقافته، لكنَّه لاحقًا عمد إلى التّشكيك في صحَّة رسالة النّبيّ محمّد (ص)، من خلال الطّعن في ظاهرة الوحي، وغير ذلك. لذلك، يُمثّل الاستشراق خطوة نحو السّيطرة الثّقافيّة والسّياسيّة.

عدَّ «مالك بن نبيّ» الاستعمار قضيّة خطيرة وجديرة بدراسة خاصّة، بعد قوله: «الحقّ أنّنا لم ندرس بعدُ الاستعمارَ دراسة علميّة، كما درَسَنا هو، حتَّى أصبح يتصرَّف في بعض مواقفنا الوطنيّة، وحتَّى الدّينيّة، من حيث نشعر أم لا نشعر».

موقف «مالك بن نبيّ» من الحضارة الغربيّة

تزخر كُتُب «مالك بن نبيّ» بقراءات نقديّة للنّظريّات الغربيّة في المجالات الإنسانيّة والاجتماعيّة. وقد كوّن فكره حول الغرب عبر تواجده في البلاد الغربيّة، وقراءته للكتب والصّحف فيها، وحضوره لمحاضرات المُستشرقين، وزياراته للمتاحف والمسارح والحيّ اللّاتينيّ الفرنسيّ. وقد استعان بالتّحليل التّاريخيّ والتّحليل النّفسيّ في دراسته للحضارة الغربيّة وأطوارها، مُصرّحًا أنّ تتبّع أطِّراد الحضارة هو تتبّع صورة زمنيّة للأفعال وردود الأفعال المتبادلَة، والتي تتولّد منذ مطلع الاطِّراد بين الفرد والفكرة الدّينيّة التي تبتعث فيه الحركة والنّشاط.

فالحضارة عنده تبدأ مع دخول الفكرة الدّينيّة أو المبدأ الأخلاقيّ إلى التّاريخ، وتنتهي عندما تفقد الرّوح الهيمنة على الغرائز. وقد أشار إلى أنَّ الغرائز لا تتحرَّر دفعة واحدة مِن قيودها في المجتمع، وإنَّما تنطلق بقدر ما تضعف فيه سلطة الرّوح. وعندما تُغيّب الوظيفة الاجتماعيّة للفكرة الدّينيّة في مجتمع مُنحلٍّ أخلاقيًّا، يكون المُجتمع قد دخل نهائيًّا في ليل التّاريخ، وبذلك تحصل دورة في الحضارة. ومع نهاية الدّورة، يكون الإنسان قد تفسّخ حضاريًّا، ودخل في عهد ما بعد الحضارة.

والحضارة الغربيّة بالنّسبة إلى مالك بن نبيّ هي حصيلة تراكم الحضارات السّابقة وتتابعِها، مثل: الصّينيّة والإغريقيّة والرّومانيّة والإسلاميّة، والمَسيحيّة التي انتقلت إلى أوروبّا وكانت بمثابة الهيكل الأخلاقيّ الضّروريّ الذي أتاح للحضارة الغربيّة أن تزدهر. ورأى أنَّ مقوِّمات الغرب هي نتيجة ارتباط الإنسان الأوروبّيّ بالتّراب والوقت. لذلك، فإنَّ قوَّته ونزعة هيمنته لا تُفسّرهما فقط إمكاناته المادِّيّة والتّكنولوجيّة، إنَّما أيضًا رفض الخمول وحبُّ العمل. فقد نشأ العلم والفنّ في مُجتمع منظّم لم يعد الفرد فيه يخضع لمزاجه المُتقلِّب.

تطمح الحضارة الغربيّة أن تبسط هيمنتها على العالم كلّه، مستعينةً بالوسائل العسكريّة والاقتصاديّة والثّقافيّة. وقد نجحت في تحويل العالَم الإسلاميّ إلى سوقٍ لاستهلاك منتجاتها الصّناعيّة والثّقافيّة، ونشرت أفكارها عبر البعثات الأوروبّيّة وتيّارات التّغريب في العالَم العربيّ، وادَّعت حركتها الاستعماريّة رسالة تحضير الشّعوب الأخرى، بغية وضع اليد على الموارد الطّبيعيّة والبشريّة، والاستفادة مِنَ الطّاقات الاجتماعيّة لتحقيق مصالحها الاقتصاديّة وأهدافها الحضاريّة.

والحضارة الغربيّة، بنزعتها المادِّيّة، تفتقد التّوازن الحضاريّ الذي اتّسمت

بـه الحضـارة الإسـلاميّة النّاظـرةُ إلـى البُعديْـن المـادِّيّ والرّوحـيّ معًـا. فقـد أخضعـت ثقافتُهـا ـ جوهـرُ الحضـارة الغربيّـة ـ كلَّ شـيءٍ، وكلَّ فكـرةٍ، إلـى مقاييـس الكـمّ منـذ عهـد «ديـكارت»[1] (1596ـ1650م) (René Descartes)، وباتت قداسـة الأشـياء والقيـم المقدَّسـة كلّهـا فـي طـيِّ النّسـيان بسـبب طغيـان النّزعـة العقليّـة، واضمحلَّـت القاعـدة الأخلاقيّـة الرّوحيّـة التـي تتحمَّـل فـي كلِّ مجتمـع عـبء الأثقـال الاجتماعيّـة والماديِّيّـة، فأصبحـت الحضـارة الغربيّـة تحـت وطـأة عالـم الأشـياء وضغطـه الخانـق، ومـا عـادت قـادرة علـى حـلِّ مُشـكلاتها الاجتماعيّـة، وهـي بذلـك علـى حافَّـة الهاويـة، قـد بـدأت فـي طَـوْرِ أفولهـا النّـازل.

اعتقـد «مالـك بـن نبـيّ» أنَّ الحـوار مـع الغـرب لا يكـون مُثمـرًا إلَّا بعـد معرفـة منطلقاتـه الفلسـفيّة والتّاريخيّـة للحضـارة، والتـي تُحـدِّد طبيعـة علاقـة حضارتـه بغيرهـا مِـنَ الحضـارات. لذلـك، لا بُـدَّ مِـن فَهـم الموروثيْـن الدّينـيّ والثّقافـي للغـرب، ومعرفـة توجّهاتـه المُسـتقبليّة. ومـن خـلال سـؤال طرحـه عـن سـبب اتّجـاه اليهـود فـي أثنـاء الشّـتات إلـى الغـرب المُتخلّـف ـ قبـل مرحلـة نهضتـه ـ دون الشّـرق المُتحضِّـر، عـدَّ أنَّ الـذّكاء اليهـوديّ سـهّل عليـه مهمَّـة السّـيطرة علـى المجتمـع الأوروبـيّ فـي جميـع عصـوره، فأصبـح هـو ـ أي اليهـوديِّ ـ روح الحضـارة الغربيّـة، بنزعتهـا النّفعيّـة الماديِّيّـة، ونزعتهـا العنصريّـة، وعقلَهـا المُفكـر وتاريخَهـا الأصيـل.

وقـد اتَّصـل المجتمـع الغربـيّ بالمجتمـع الإسـلاميّ فـي العصـر الحديـث، مـن خـلال دخـول الاسـتعمار إلـى البلـدان الإسـلاميّة، وعبـر إرسـال البعثـات إلـى الـدّول الأوروبيّـة لتلقِّـي العلـم؛ مثـل بعثـة «محمّـد علـي»[2] إلـى فرنسـا، والتـي كان لهـا تأثيـرٌ علـى النّهضـة العلميّـة الحديثـة فـي مصـر. فعندمـا ضَعُفـت الحضـارة الإسـلاميّة، أصبـح أمامهـا ثلاثـة[3] نمـاذج حضاريّـة للاختيـار بينهـا ـ مـن أجـل بنـاء حضارتهـا ـ، ومـن بيـن هـذه النّمـاذج النّمـوذج الغربـيّ. ولكـن، فـي أثنـاء محاولتهـا لاحتـذاء الغـرب سـقطت فـي تبعيَّـة مُطلقة؛

1- «رينيـه ديـكارت»، يُعـدّ مؤسّـس الفلسـفة الحديثـة، وتتقـوَّم نظريّتـه المعرفيّـة بُعـد «الشّـكّ المنهجـيّ».

2- تولَّـى «محمّـد علـي» حكـم مصـر مـن عـام 1805م إلـى عـام 1848م، وقـد أرسـل أوَّل بعثـة مِـنَ البعثـات الكبـرى إلـى أوروبـا، عـام 1826م.

3- بـرأي «مالـك بيـن نبـيّ» النّمـاذج الثّلاثـة أمـام العالـم الإسـلاميّ، هـي: المُجتمـع الغربـيّ والمُجتمـع اليابانـيّ والمُجتمـع الرّوسـيّ.

لأنَّها لم تُحدِّث التّركيب التّاريخيّ التّكوينيّ للإنسان والتّراب والوقت، كما أنَّها لم تحدّد الأمر الجوهريّ الرّئيس الذي يجب الاستفادة منه عند اختيارها للنّموذج؛ أي لم يكن الفكر حاكمًا على عمليّة بناء الحضارة لدى أولئك الذين أرادوا الاختيار بين هذه النّماذج.

وللنّهوض بالعالم الإسلاميّ، ظهر تيّاران: «تيار الحركات الإصلاحيّة»؛ أي جميع الحركات التي نهضت تنادي في العالم الإسلاميّ بالعودة إلى الإسلام، و«تيار الحركة الحديثة» الذي ينادي بتبنِّي الحضارة الغربيّة مع التّنكُّر للأصول الإسلاميّة. ويرى «مالك بن نبيّ» أنَّ تيّار الحركات الإصلاحيّة مرتبط بضمير المسلم، وهو أقرب إلى تحقيق فكرة النّهوض مِنَ التّيّار الآخر.

كما يؤكّد «مالك بن نبيّ» الحاجة إلى معرفة الحضارة الغربيّة بكونها ظاهرة، لكي تُحدَّد طبيعة الصّلة معها، فهو لا يراها شرًّا مُطلقًا، ويحثُّ على الاستفادة مِنَ التّجارب البشريّة من أجل النّهوض بالمجتمع وبناء حضارته. وهذه المعرفة الضّروريّة تتضمَّن معرفة تاريخ الحضارة الغربيّة وثقافتها وخصائصها. ويرى أنَّ الجهل بتاريخ الغرب يُوقِع في النَّظرة السّطحيّة الظّاهريّة للأمور، ويمنع الولوج إلى جوهرها وإدراك أنَّ الحضارة الغربيّة في طريق التّحلُّل والزّوال. ويحثُّ «ابن نبيّ» على معرفة مصادر تكوين الثّقافة الغربيّة وخصائصها من أجل تحليل الحضارة الغربيّة تحليلًا صحيحًا، ويؤكّد وجود حاجة إلى معرفة تاريخ الأديان، لأهمِّيّة الدّين في حركة الحضارة. فالقوانين الأوروبيّة على الرّغم من أنَّها تظهر مدنيّة علمانيّة بحتة، إلَّا أنَّها في جوهرها لاهوتيّة. ومن خلال التّطرُّق إلى خصائص الحضارة الغربيّة تظهر سِمَة الرّوح العنصريّة، إلى درجة ملاحظة أنَّها احتقرت الأجناس كلّها.

رأى «مالك بن نبيّ» أنَّه، من خلال تحليل الحضارة الغربيّة، يمكننا أيضًا الوقوف على إيجابيّاتها المُتمثّلة بالتّقدُّم العلميّ والتّكنولوجيّ والصّناعيّ. فقد استطاعت أن تكون حضارة عالميّة بمنتجاتها الاقتصاديّة والثقافيّة التي سادت العالم أجمع، وبأنماط الحياة التي أبدعتها الشّعوب وتبنَّتها، إلَّا أنَّها أرادت من وراء تلك العالميّة أن تكون مُسيطرة بنفوذها ومادِّيَّتها ـ التي تُشكِّل رؤيتها للكون والتّاريخ ـ على العالم كلّه. غير أنَّه لا بُدَّ من عدم الغفلة عن أنَّ هذا الواقع الاستعماريّ الشّرير قد انطوى على رحمة مخفيَّة، إذ أيقظ الشّعوب التي كانت قد استسلمت لنوم عميق، فنهضت لتستعيد حضارتها.

تعاني الحضارة الغربيّة من فصام لأنَّها تُركِّز على العوامل المادِّيّة التّكنولوجيّة وتُهمل الجانب الرّوحيّ القيميّ؛ فالعلم يرفعها نحو التّوحّد مع الإنسانيّة، بينما ضميرها مُتخلِّف عن تقدُّمها العلميّ، ما جعلها تحاول أن تجعل من إشعاعها العالميّ نوعًا من الهيمنة التي تؤكِّد التّمركز الغربيّ. والإشعاع الذي تتمتَّع به ثقافة الغرب يجعل مِن فوضاه الحاليّة مشكلة عالميّة ينبغي أن نُحلِّلها وأن نفهم صِلاتها بالمشكلات الإنسانيّة عامَّة.

لقد تناول «مالك بن نبيّ» ظاهرة الحضارة الغربيّة بجوانبها السّلبيّة والإيجابيّة، في نظريّته حول الدّورة الحضاريّة، مُحاولًا رصد حركتها على مسرح التّاريخ وميدان التّغيير الاجتماعيّ، من أجل الاستفادة من هذه التّجربة البشريّة، والأخذ من ذاك النّموذج الحضاريّ بوعي. كما أكَّد أهمِّيّة التّنبُّه واليقظة في التّعامل مع الحضارة الغربيّة في جميع مجالاتها؛ لأنَّ جانبها السّلبيّ متمثِّل بأشكال الاستعمار كافّة، سواء المادِّيّة العسكريّة أو الثّقافيّة الاجتماعيّة، ومحاولة السّيطرة على الشّرق وتهديد هُويَّته.